في هذا العدد :



الدولة الرخوة: أثر العامل الخارجي على سياسة الدولة

د. حسن الحاج علي أحمد

فض النزاعات من وجهة نظر إسلامية

د. الطيب زين العابدين



الثقافة العربية في السودان

الخضر هارون



الإمام محمد عبده.. حياته ودعوته الإصلاحية

د. جميلة نور الدائم الجميعابي

رض كتب

ماذا يعني علم الاستغراب

تأليف: د. حسن حنفي

عرض: عبد الرحمن غانم



ـح من الحركة الفكرية للعام ٢٠٠٥م

قسمة أحمد خليفة

أفكار جديدة أفكار جديدة أفكار جديدة

مستشارو التحرير

(أبجدياً)



أفكار جديدة

مجلة فصلية جامعة تُعنى بقضايا الفكر والثقافة

تصدر عن

هيئة الأعمال الفكرية

العمارات شارع ٣٥

هاتف:

٥٧١٤٣٦ — ١٨٣ — ٠٠٢٤٩

٥٧١٤٣٧ — ١٨٣ — ٠٠٢٤٩

فاكس: ٥٧١٤٣٨ — ١٨٣ — ٠٠٢٤٩

ص. ب: ١٢٠٠١

الرمز البريدي: ١١١١١ الخرطوم

محتويات العدد

مقالات:

الدولة الرخوة: أثر العامل الخارجي على سياسة الدولة ٥

د. حسن الحاج علي أحمد

أزمة التطوير العلمي في الصيرفة الإسلامية ٢٧

د. بدر الدين عبد الرحيم إبراهيم

فض النزاعات من وجهة نظر إسلامية ٤١

د. الطيب زين العابدين

الدين والسياسة في الطريقة الختمية .. قراءة في مستقبل الطريقة الختمية ٤٩

د. طارق أحمد عثمان

منظومة مجتمع المعرفة ودورها في دعم الدخل القومي وتحقيق الأمن الشامل ٦٣

بروفيسور / عوض حاج علي أحمد

الترف ودوره في انهيار الحضارات ٧٧

حسن سليمان قيلي

نشر التعليم كمدخل لسد ذرائع التهميش في أقاليم السودان: دارفور وكردفان نموذجاً ٨٥

د. محمد الفاتح بريمة

محاضرات:

الثقافة العربية في السودان ٩٥

السفير/ الخضر هارون

أعلام:

الإمام محمد عبده .. حياته ودعوته الإصلاحية ١١١

د. جميلة نور الدائم الجميعابي

عرض كتب:

ماذا يعني علم الاستغراب ١٣٣

تأليف: د. حسن حنفي   عرض: عبد الرحمن غانم

تقارير:

ملامح من الحركة الفكرية للعام ٢٠٠٥م ١٦١

قسمة أحمد خليفة

الدين والسياسة في الطريقة الختمية
قراءة في مستقبل الطريقة الختمية

د. طارق أحمد عثمان*

تمهيد:

برزت الطريقة الختمية إلى الحياة السودانية مع دخولها السودان في سنة ١٨١٦م على يد مؤسسها السيد محمد عثمان (الختم)، وكان وجودها في البلاد عملاً إحيائياً كبيراً، حيث أسهم قائدها الأول في بعث الحراك الديني، وفي عودة السودانيين إلى التشبث بالكتاب والسنة، وكان يسير في نهجه الإصلاحي على هدى أستاذه السيد أحمد بن إدريس صاحب المدرسة الإدريسية التي أثّرت كثيراً في تشكيل الذهنية الدينية السودانية، وقد استطاع السيد محمد عثمان (الكبير) أن يصبغ الحياة الدينية في السودان بصبغة خاصة، وقد كان السيد إسماعيل الولي (مؤسس الطريقة الإسماعيلية) أحد أبرز تلاميذه الذين تأثروا به بشكل بالغ.

إن دخول السيد محمد عثمان الختم إلى السودان وزياراته للبلاد فيما بعد، قد خلقت تياراً دينياً عميقاً وعريضاً، وأوجدت أنشطة متعددة خدمت حركة الإحياء الإسلامي الرائدة، التي ظلت آثارها قائمة طيلة القرن التاسع عشر وردحاً طويلاً من القرن العشرين، وكان السيد محمد عثمان صاحب شخصية فريدة حيث توفرت فيه كل مقومات القيادة الدينية من علم ودين وحرص على نشر الدعوة، أضف إلى ذلك تمتعه بنسب شريف حبب إليه السكان المحليين، وجعل الكثيرون يتبعونه ويصبحون من تلاميذه على الرغم من أن العديدين لم تتيسر لهم فرصة ملاقاته.

وعلى المستوى السياسي في هذه المرحلة الباكرة من عمر الطريقة الختمية، تعد رحلة السيد محمد عثمان الختم إلى السودان عملاً سياسياً، فلقد ربط بعضهم وجود الختم في السودان بمجيء الحملة الغازية إلى البلاد في ١٨٢١ م فيما عرف بحملة الفتح المصري — التركي أو التركية السابقة، وعلى الرغم من أن هذا الزعم ليس هناك ما يؤيده بل على العكس من ذلك، كان السيد الختم دائماً يبرز أنه ليس على صلة بأهل الحكم، ويرفض أن يتصل بهم عملاً بمنهج أستاذه السيد أحمد بن

---

[1] أستاذ بجامعة إفريقيا العالمية.

إدريس، إلا أن مصادر الختمية المدونة تذكر أن السيد الختم أخبر تلاميذه أن الغزو سيصل القرية التي أسسها في شرق السودان، وهي قرية (السنية) على جبل التاكا (كسلا الآن)، وتذهب هذه المصادر أبعد من ذلك، فتروي أن الختم قد كتب خطاباً وجّهه إلى هؤلاء الغزاة بحسن معاملة أتباعه. وفي ظني أن حدس السيد الختم ذلك ربما كان سببه توفر معلومات لديه من مصدر ما بنوايا الحملة القادمة على السودان، ولا يمكن أن يحمل الأمر أكثر من ذلك، أما عن ارتباط الطريقة الختمية أو صلة هؤلاء بالحكام الجدد فإن الوثائق والأحداث تكشف عن جانب مهم في تاريخ الختمية واتصالهم بأهل السلطة في زمن السيد الحسن بن الختم، وفي هذا الجانب يمكننا القول إن سياسة الحكومة تجاه الختمية قبل قيام الثورة المهدية لم يكن أصلها المحاباة والتحيز على نحو ما ذكره نعوم شقير في كتابه القيّم عن تاريخ السودان، لقد اختلفت معاملة الأتراك (وكان هذا بشكل طبيعي) من مدير إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى، فلقد تعرض السيد الحسن المتوفي ١٨٦٨م إلى مضايقات من قبل أحمد باشا أبو ودان (ت ١٨٤٤م) والذي كان حاكماً عاماً على السودان من ١٨٣٩ وحتى تاريخ وفاته، وقد اعتبر الختمية أن وفاة أبي ودان هي إحدى كرامات السيد الحسن، وقد تعرضت طائفة كذلك من أبناء الختمية إلى القتل الجماعي (أو ما يصطلح اليوم على تسميته بالإبادة الجماعية) في نهاية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر الميلادي على يد التركية السابقة، كما أن الحكومة التركية في كثير من الأحيان كانت تنظر إلى أتباع الختمية - خاصة الخلفاء - نظرة ارتياب وشك، وترى فيهم أناساً عاطلين عن العمل، لكن السيد الحسن في منطقة أخرى من البلاد وهي شرق السودان كان يجد الاحترام والتقدير نظراً لنفوذه المتزايد هناك، وقد طلبت الحكومة مساعدته في ثورة الجهادية السود في سنة ١٨٦٥م، وتمكنت الحكومة بسبب تدخله من أن تحسم الموقف لصالحها، إلا أن البداية الحقيقية للعمل السياسي الواضح لأنصار الطريقة الختمية بدأ مع بداية الثورة المهدية، حيث شارك الختمية في الدفاع عن كسلا وهي إحدى مراكزهم المهمة، ونتيجة لذلك طعن قائد الختمية آنذاك وهو السيد محمد عثمان الأوسط أو الثاني وسافر متأثراً بجراحه إلى مصر حيث توفي ودفن بها في سنة ١٨٨٤م، كما أن مسجدهم تعرض للدمار بعد أن تم بناءه في حينها بأحدث المواصفات غير المحلية، لقد اعتبر الختمية الثورة المهدية ابتلاء وفتنة يجب القضاء عليها، وقد أرادت — أي المهدية

– أن تذوب الختمية في إطارها الديني، وكان هذا أمراً مرفوضاً من قياداتهم، فالختمية لها تصور خاص لفكرة المهدية، ولم تكن تعتبر الإمام محمد أحمد بن عبد الله المهدي مهدياً حقيقياً، ولم يكن هذا موقفها وحدها بل شاركها طائفة من العلماء الذين عدّهم المهدي من أتباع السلطة القائمة، ونعتهم بعلماء السوء. كما أن الذين تقاطعت مصالحهم مع المهدية لم يقبلوا بها، وكذلك الذين تعرضوا لبطش وإرهاب رجال المهدية، وقفوا ضدها وحاربوها، فكانت مقاومة الثورة المهدية أمراً موجوداً ولم يكن عملاً شائناً أو فريداً من نوعه، كما أنه من غير المنطقي اعتباره ضرباً من العمالة للأجنبي.

وكان التحالف بين التركية السابقة والختمية عقداً سارياً في جل أنحاء السودان الذي يتمتع فيه الختمية بنفوذ قوي، وقد ساعدت بعض السيدات من آل الميرغني في مقاومة المهدية في شندي. إن النشاط السياسي والعسكري اللذين أظهرتهما الطريقة الختمية أبان الثورة المهدية أعطيا الطريقة الختمية القوة فيما بعد، وعقب زوال الدولة المهدية لتكون الرائد الأول في التنسيق مع الحكم المصري – الإنجليزي ١٨٩٨م، وليكون السيد علي – وريث بيت الميرغني – الرجل الأول الذي يمكن أن يعتمد عليه الإنجليز. والسيد علي قصة قائمة بذاتها، ولكن على المستوى السياسي، فإن السيد علي المولود في جزيرة مساوي بالشايقية في حوالي سنة ١٨٧٩م، كان ثمرة لحياة طويلة من النضال والعمل الديني والعلاقات، وقد صنع لنفسه مجداً سياسياً ومكانة أوصلت أتباعه والذين التفوا حوله إلى أول حكومة وطنية بالبلاد.

ارتبط السيد علي الميرغني بالعمل السياسي منذ أن كان طفلاً فلقد اهتمت به الحكومة في مصر اهتماماً بالغاً وجعلته تحت رعايتها، وكان ذلك بسبب الخدمات الجليلة التي قدمها السيد محمد عثمان الأوسط للحكومة في فترة المهدية، إلا أن الحكومة في تلك الفترة كانت تخشى على السيد علي كذلك من تأثير الخلفاء عليه، ولذلك اقترح هولد سميث إبعاده عنهم، وقد اختتم مذكرته بقوله: (إن الطريقة الختمية ما يزال لها نفوذ قوي في السودان ومن المتوقع أن يصير هذا الصبي في المستقبل ذا فائدة للحكومة)، هذا بحسب ما جاء في دراسة أبي سليم عن السيد علي، وقد قدمت الحكومة آنذاك مساعدات مالية مقدرة للمراغنة تعويضاً عن الأضرار التي لحقت بهم في فترة الثورة المهدية.

مستقبل الطريقة الختمية تحت قيادة السيد محمد عثمان الميرغني:

من الواضح جداً أن هناك متغيرات سياسية واجتماعية كبرى انتظمت البلاد في العقود الأربعة الأخيرة أثّرت على تشكيل العقل الديني والسياسي السوداني، وأبدلت الحياة السودانية في كثير من الأحيان بصورة تامة، وغيّرت العديد من المفاهيم والقيم وأوجدت جيلاً جديداً له فهم آخر وفكر مختلف وتصور ورؤى مغايرة لما كانت عليه الأجيال السابقة، إن هذه التحولات العظيمة التي اشتملت الحياة السودانية بكل تأكيد غيّرت ألواناً من العيش كانت مألوفة، وقوّت جماعة على أخرى، وأضعفت نفوذ فئة على الثانية، ومن كان يظن نفسه قوياً قبل عقد من الزمان أو أكثر ربما لا يراوده هذا الشعور الآن، وكثير من التجمعات السياسية والدينية والاجتماعية ربما تحتاج إلى العديد من المراجعات.

ذكرنا هذا الحديث كتمهيد لحديثنا عن الظروف التي تعيشها الطريقة الختمية في الوقت الحاضر، لكننا نود أن نعالج واقع الطريقة الختمية من خلال كلامنا عن قياداتها الحالية ودورهم وأثرهم القائم والذي يرتجى أن يكون، وإن من أبرز القيادات الحالية للطريقة، السيد محمد عثمان الميرغني.

التعريف به:

هو محمد عثمان بن علي بن محمد عثمان (الثاني) بن محـمد الحسن بن محمد عثمان (الختم أو الأول)، ولد السيد محمد عثمان في سنة ١٩٣٦م، ووالدته هي السيدة فاطمة بنت السيد جعفر بن السيد بكري بن السيد جعفر (صاحب الديوان المشهور في مدح النبي صلى الله عليه وسلم) بن السيد محمد عثمان (الختم)، وله أخت شقيقة هي السيدة نفيسة التي تزوجها السيد محمد الحسن (الثاني) بن السيد أحمد بن محمد عثمان (الثاني). والسيد محمد الحسن مقره كسلا وتوفي في الثمانينيات من القرن الماضي، ولهذا أهميته، ففي وقت من الأوقات أصبح السيد الحسن (الثاني) منافساً قوياً لنفوذ السيد محمد عثمان (الأصغر) كما سنوضح لاحقاً، وله أخ شقيق هو السيد أحمد، وقد تزوج السيد أحمد من أسرة مصرية.

تزوج السيد محمد عثمان ابنة خاله السيد محمد عثمان بن جعفر بن بكري بن جعفر بن محمد عثمان الختم، وهي أخت السيد محمد سر الختم (شرق

– أن تذوب الختمية في إطارها الديني، وكان هذا أمراً مرفوضاً من قياداتهم، فالختمية لها تصور خاص لفكرة المهدية، ولم تكن تعتبر الإمام محمد أحمد بن عبد الله المهدي مهدياً حقيقياً، ولم يكن هذا موقفها وحدها بل شاركها طائفة من العلماء الذين عدّهم المهدي من أتباع السلطة القائمة، ونعتهم بعلماء السوء. كما أن الذين تقاطعت مصالحهم مع المهدية لم يقبلوا بها، وكذلك الذين تعرضوا لبطش وإرهاب رجال المهدية، وقفوا ضدها وحاربوها، فكانت مقاومة الثورة المهدية أمراً موجوداً ولم يكن عملاً شائناً أو فريداً من نوعه، كما أنه من غير المنطقي اعتباره ضرباً من العمالة للأجنبي.

وكان التحالف بين التركية السابقة والختمية عقداً سارياً في جل أنحاء السودان الذي يتمتع فيه الختمية بنفوذ قوي، وقد ساعدت بعض السيدات من آل الميرغني في مقاومة المهدية في شندي. إن النشاط السياسي والعسكري اللذين أظهرتهما الطريقة الختمية أبان الثورة المهدية أعطيا الطريقة الختمية القوة فيما بعد، وعقب زوال الدولة المهدية لتكون الرائد الأول في التنسيق مع الحكم المصري – الإنجليزي ١٨٩٨م، وليكون السيد علي – وريث بيت الميرغني – الرجل الأول الذي يمكن أن يعتمد عليه الإنجليز. والسيد علي قصة قائمة بذاتها، ولكن على المستوى السياسي، فإن السيد علي المولود في جزيرة مساوي بالشايقية في حوالي سنة ١٨٧٩م، كان ثمرة لحياة طويلة من النضال والعمل الديني والعلاقات، وقد صنع لنفسه مجداً سياسياً ومكانة أوصلت أتباعه والذين التفوا حوله إلى أول حكومة وطنية بالبلاد.

ارتبط السيد علي الميرغني بالعمل السياسي منذ أن كان طفلاً فلقد اهتمت به الحكومة في مصر اهتماماً بالغاً وجعلته تحت رعايتها، وكان ذلك بسبب الخدمات الجليلة التي قدمها السيد محمد عثمان الأوسط للحكومة في فترة المهدية، إلا أن الحكومة في تلك الفترة كانت تخشى على السيد علي كذلك من تأثير الخلفاء عليه، ولذلك اقترح هولد سميث إبعاده عنهم، وقد اختتم مذكرته بقوله: (إن الطريقة الختمية ما يزال لها نفوذ قوي في السودان ومن المتوقع أن يصير هذا الصبي في المستقبل ذا فائدة للحكومة)، هذا بحسب ما جاء في دراسة أبي سليم عن السيد علي، وقد قدمت الحكومة آنذاك مساعدات مالية مقدرة للمراغنة تعويضاً عن الأضرار التي لحقت بهم في فترة الثورة المهدية.

السودان)، والسيد محمد عثمان له ستة أبناء ذكور، أكبرهم علي ثم محمد الحسن وعبد الله وأحمد وجعفر ومحمد، درس السيد محمد عثمان مع أخيه السيد أحمد وابن خاله السيد محمد سر الختم مراحله الدراسية في مدرسة الأشراف، وهي مدرسة ألحقت بالتعليم العام لتضمن نوعاً معيناً من المخالطة والتربية لهذا الجيل من أبناء المراغنة، وليس في ذلك عيب، فهي في تصورها أشبه بفكرة المدارس الخاصة اليوم.

ترك السيد محمد عثمان دراسته العليا ليتفرغ للعمل العام بجانب أبيه السيد علي الذي بدأ يجهّزه لقيادة الطريقة ورعاية العمل السياسي، وقد توفي السيد علي في سنة ١٩٦٨م بعد عمر ليس بالقصير قضاه في زعامة حقيقية على مختلف الأصعدة، يصف الكثيرون تدين السيد محمد عثمان بأنه تقليدي، وهذا يعني أنه شخص حريص على عباداته، متمسك بأهداب الشريعة، ولكنه في الوقت نفسه ليس لديه تصورات مميزة ليكون الإسلام هو محور الحياة، فهو لا يتبنى فكراً إصلاحياً يقوم على التجديد، وربما كان يؤمن أن ما لدى السودانيين من معتقدات محلية تسود في أوساطهم يكفي لأن يكون هو الدين المثالي في المجتمع السوداني، وهو الدين أو النسخة من الدين الذي يعلي من شأن الغيبيات ويكرّس لمفاهيم الكرامة ووجود الأولياء أصحاب قوة خارقة مسيطرة على الحياة ومتنفذة في شؤون الناس، ويرى بعضهم أن تدين السيد محمد عثمان لا يتعدى هذه الروح، أو يتجاوز هذه القيم، وهذا يتناقض مع ما برز في فكر المدرسة الإسلامية المعاصرة، التي تدعو إلى إسلام توحيدي يسخر الحياة لإعلاء قيم الدين، ولربط معاش الإنسان ومعاده بالمنهج السماوي، والترفّع عن ما خالط تدين السودانيين من ترهات وأباطيل، جعلت الدين جميعه رهين بقيم غيبية ليس لدينا عليها سلطان ولا نملك إزاءها شيئاً، وهذا لا ينفي بكل تأكيد وجود الكرامة أو وجود قيم غيبية في الإسلام، لكن الأخذ السوداني صاحبه شطط، لقله معرفة السودانيين وضعف وعيهم بالمصادر الإسلامية الأصيلة، والناظر إلى المعرفة السودانية بالدين في كثير من الفترات التاريخية التي مرت بالبلاد لا يجد (في باب الأصول) إلا اتصالاً محدوداً ببعض شروح الفقه أو العقائد، بينما تقف مصنفات الشعراني والسيوطي في قمة هرم البناء الديني للعقل السوداني، أضف إلى ذلك ما تسرب إلى السودانيين من آراء محي الدين بن عربي حول فكرة المهدية. والختمية أنفسهم آمنوا بفكرة المهدية

عبر مؤلفات السيد محمد عثمان الختم، ولكن المهدية ارتبطت لديهم بختم الولاية، وشاع لديهم كذلك أن المهدي سيخرج من بينهم، والسيد الختم روّج لأفكار محي الدين بن عربي على هذا الأساس. وبعيداً عن هذا الاستطراد، وعودة أخرى إلى ما كنا فيه من حديث عن تدين السيد محمد عثمان، فإنه يمكننا القول بأن السيد محمد عثمان وفقاً للبيئة التي تربى فيها، والأجواء التي عايشها، وجماعة خلفاء الختمية الذين عاش وهم يحيطون به، وكذلك ربما طبيعة المؤلفات الدينية التي كان يطّلع عليها، وكذلك شخصية والده السيد علي والذي كان يوصف بأنه شديد التأثر بكتب التراث يلوذ بقراءة المعوذات ويهتم بترديد ما يحفظ من أوراد دينية، كل هذا الذي ذكرنا يدعونا إلى تلخيص رأينا حول تدين السيد محمد عثمان، في أن تدينه تديناً شخصياً محافظاً لا ينسحب على فكره أو على حياته باعتباره زعيماً روحياً وسياسياً كبيراً، كما إنه لا يملك فهماً إسلامياً متكاملاً يدعو إليه أو يبشّر به، وصحيح أنه على المستوى الخاص كثير التمسك بأصول الشريعة عاملاً بها. إلا أن فهمه للإسلام يظل قاصراً ومحدوداً، لا يهتم بأمر الدعوة إلى إسلام شامل للحياة على النحو الذي يطرح اليوم. وهذا يفسر موقفه من بعض المسائل المعاصرة، نحو موقفه من الفن، أو بشكل أدق موقفه من الموسيقى، فلقد أغضبه أن القصائد الخاصة بالطريقة الختمية التي كتبها السيد محمد هاشم والسيد جعفر جعلت في قالب موسيقي، ولا أحسب أن موقفه هذا مناسباً لأن التصريح بهذه الملحنات بمصاحبة الموسيقى قد يوفّر لها انتشاراً أكبر، خاصة وسط الشباب، ويمكننا أن نلاحظ ذلك فيما قدمه الشيخ شاطوط بود مدني، فقد ذاعت شهرته بسبب مدائحه التي قدمها للناس في قالب لحني يجاري به أغاني الحقيبة السودانية، أو موقف الشيخ عبد الرحيم محمد وقيع الله (البرعي)، والذي لم يمانع في أن تقدم مدائحه بمصاحبة الموسيقى، وإن قال قائل: إن الموسيقي ترد حولها العديد من آراء العلماء القائلة بتحريمها، فإنه يمكننا القول إن الموسيقي وآلات الطرب ظل الخلاف حولهما قائماً، فهناك من حرمهما، وهناك من أباحهما. وحتى لا نذهب بعيداً عن موضوعنا، فإنني قد ذكرت ذلك للإشارة إلى أن نظرة السيد محمد عثمان لكثير من الأمور التي ربما تنفع وتجدي ما زالت رمادية ويكتنفها عدم الوضوح.

إن السيد محمد عثمان ظل طيلة فترة قيادته للطريقة الختمية يتعرض لانتقادات أولاً ممن هم حوله من أتباعه وأنصاره، وثانياً من خصومه ومن المراقبين لمجهوداته

في العمل السياسي والديني، وعلى الرغم من أن السيد محمد عثمان توفرت له العديد من الأسباب التي كان من شأنها أن تتيح له فرصاً أكبر لتمديد نفوذه وبسط سلطانه على قطاع عريض من أبناء الختمية، فقد وصفه الحاج مضوي مثلاً: بأنه أغنى سوداني من حيث المال، ويؤيد هذا القول العدد الهائل من العقارات والأملاك التي صادرتها حكومة الإنقاذ عند قيامها على امتداد السودان. ويقال إن العقارات المصادرة في الخرطوم الكبرى وحدها حوالي ٧٠ عقاراً، إلا أن هذه الأملاك بها العديد من الإشكالات، فهناك كثير مما يمتلكه ليس خاصاً به وحده، وربما جانب منه تعود ملكيته إلى جميع أفراد الأسرة الذين ينتمون إلى السيد محمد عثمان (الثاني أو الأقرب)، والسيد علي نفسه كان قد دخل في نزاع مع أفراد أسرته حول ملكية بعض الأراضي، خاصة نزاعه الشهير حول الجنينة بالخرطوم، والتي نازع فيها بصفة خاصة ابن أخيه السيد محمد عثمان (شمبات)، والأخير نازع عمه ليس في ملكية الأرض فحسب، ولكن في النفوذ على الطريقة الختمية كذلك، والسيد محمد عثمان (شمبات) ليس فرداً عادياً من أبناء المراغنة، فهو شخصية مهمة في تاريخ الختمية المعاصر. وقد قابل الإمام حسن البنا في مصر والذي أشاد بدوره بشخصية السيد محمد عثمان (شمبات) وأبدى إعجابه به. وفي الواقع لقد كانت للرجل تطلعات فيما يبدو، وقد اهتمت به الحكومة الإنجليزية في السودان ردحاً من الزمن، ولكن اهتمامها به لم يكن على نحو الاهتمام الذي عرفه السيد علي، ومن الغريب أن الرجل توفي في نفس العام الذي توفي فيه السيد علي، وقد كان من ضمن خلاف السيد محمد عثمان (شمبات) مع السيد علي اهتمام السيد علي بابنه السيد محمد عثمان (الثالث) ليجعله وريثاً له في زعامة البيت الميرغني، وقد كان السيد محمد عثمان (شمبات) يوصف دائماً بأنه رجل عصري، يلعب التنس، ويشجع الشباب، حتى أنه أنشأ نادي (الميرغني) بكسلا، وهو نادي أكبر أنشطته كرة القدم، ويعرفه أهل الرياضة اليوم منافساً مهماً في الدوري الممتاز، وقد اهتم جون فول صاحب كتاب الطريقة الختمية في السودان بالسيد محمد عثمان (شمبات) واعتبره من النماذج التي حاولت الربط بين الإسلام والفكر الاشتراكي، ويبدو أن سبب هذا الرأي، هو حرص السيد محمد عثمان (شمبات) على تقديم خدمات اجتماعية لأتباعه بمنطقة كسلا، فقد أقام جمعية تعاونية لأهل المنطقة، وتزوج منهم زوجته أم ابنيه السيد محمد أمين والدكتور أحمد، وزوجته من قبيلة المهلكتاب

وهم فرع من البجا أصبحوا من الختمية في عهد السيد الحسن الكبير، وقد حاربوا المهدية على حسب ما جاء في كتاب نعوم شقير.

والصراع حول الميراث كما ذكرنا يأتي من جانب أولاد السيد أحمد بن السيد محمد عثمان الأقرب (المتوفى بكسلا في ١٩٢٨) وهو الأخ الأكبر للسيد علي، وقد حبس في زمن المهدية في أم درمان وبقي بها إلى زمن الفتح الإنجليزي المصري، ويأتي كذلك من أبناء السيد بكري، ومن أبناء السيد محمد سر الختم (الثاني) وهم الفرع المصري في المراغنة، وأبناء السيد تاج السر المصري وأمهم من بنات السيد بكري، ومن المهم جداً القول إن هذه النزاعات من شأنها أن تضر بموقف السيد محمد عثمان الميرغني في قيادة الطريقة. ومن الانتقادات التي توجه إلى السيد محمد عثمان طريقته في تسيير العمل داخل كيانه السياسي والديني، فهو ينعت بأنه لا يملك خطة محددة أو توجهاً واضحاً في بناء الطريقة، كما أنه ينفرد بالقرار ولا يسعى إلى مشورة الآخرين ممن هم حوله، وقد أدى ذلك إلى تفلت العديد من القيادات التي تحسب عليه. فهو لم يفلح في إبقاء طائفة من أبناء البيت الميرغني إلى جواره، على رأس هؤلاء ابنه الأكبر السيد علي، ومن الواضح أنه ليس على اتفاق مع أبيه، ويعيش الآن بأمريكا. فعلى الرغم من أن التقاليد المرعية داخل بيت الميرغني تجعل الابن الأكبر هو الذي يوجَّه إليه الاهتمام ليكون خليفة أبيه إلا أن وضع السيد علي ابن السيد محمد عثمان يبدو مختلفاً، فالسيد محمد الحسن وهو الشقيق الأصغر للسيد علي هو الذي يظهر في المناسبات ممثلاً لأبيه، كما أنه الآن عضو بالمكتب السياسي للحزب الاتحادي، وهو رئيس مجلس إدارة الشركة التجارية التابعة للبنك الإسلامي إحدى مؤسسات الختمية الاقتصادية، والشاب محمد الحسن درس الهندسة بأمريكا، أما أخوه الأكبر فلقد درس الاقتصاد. والحديث عن أبناء السيد محمد عثمان يثير تساؤلاً كبيراً عن مستقبلهم في قيادة الطريقة، من بينها أن جميع أبناءه ما زالت ارتباطاتهم في الخارج أكبر من ارتباطاتهم في الداخل، وقد درسوا في معاهد الغرب، فهل من السهل عليهم العودة والعيش في بلدهم؟ وكيف يمكن لهم التفاعل مع المعطيات الجديدة في السودان؟ وما زالت سكناهم في أمريكا وربما لا يعرفون إلا القليل جداً عن السودان. كما أن أتباعهم في هذا البلد لا يعرفونهم إلا لماماً، فكيف يمكن لهؤلاء أن يقبلوا بهذه القيادات الجديدة التي لم يعايشوها أو يختلطوا بها؟ وهذا لم يكن حال السيد علي ولا حال

ابنه السيد محمد عثمان على الرغم من أنهما قد خرجا في إحدى فترات وجودهما خارج البلاد إلا أنهما لم يذهبا بعيداً، فالسيد علي بقي في مصر قريباً من أتباعه يراسلهم ويراسلونه، ويتتبع أخبار السودان عن كثب، أما السيد محمد عثمان فقد ظل وجوده طيلة فترة الإنقاذ وحتى الآن ما بين السعودية وأرتريا ومصر، وهي أقرب إلى السودان، كما إن خاصة أتباعه قد لحقوا به فهو ليس بعيداً، أما أمريكا وأوربا فهما عالم آخر.

كذلك أفلت من عباءة السيد محمد عثمان أبناء السيد محمد عثمان (شمبات)، وأبناء السيد الحسن (الثاني) بكسلا، وجميعهم ممن لهم تأثير على الختمية، ولم يسع السيد محمد عثمان إلى القرب منهم بشكل يجعلهم قريبين منه، والسيد محمد عثمان (شمبات) ابنه الأكبر السيد محمد أمين وهو شاب نابه تخرج في جامعة القاهرة فرع الخرطوم، ودرس القانون والفقه المقارن في دراسته العليا، وهو الآن يستعد لنيل درجة الدكتوراه في الأديان، وقد قام بدور كبير في فترة حكم الانقاذ، وما زال له نفوذ لا بأس به لدى أتباعه في شرق السودان، أما أخوه الدكتور أحمد، فهو أكاديمي، وقد تخصص في طب الجراحة ولا نصيب له في السياسة، وأبناء السيد الحسن (الثاني) في كسلا وهم السيد عبد الله وهو الخليفة الحالي لأبيه، والسيد يسن، والسيد طه، وهم أصحاب الموقف في كسلا، لكنهم بعيدين عن السيد محمد عثمان، ويعتبرون أنفسهم ممثلين لبيت الميرغني تماماً مثل السيد محمد عثمان.

وآخر من يمكن أن يحسب على السيد محمد عثمان وأهمهم خروجاً عنه هو السيد محمد سر الختم، وهو محمد سر الختم بن محمد عثمان بن جعفر بن بكري بن جعفر بن محمد عثمان (الختم)، وهو رفيق درب السيد محمد عثمان، وأخوه الذي لم تلده أمه، رافق السيد محمد عثمان في صباه الباكر، وعاش معه التقلبات الكبرى التي أصابت البيت الميرغني، وزوّج ابنتيه لابني السيد محمد عثمان، وهو رجل في غاية الأهمية إذ أنه يتمتع بشخصية جيدة قريبة من الناس على خلاف عادة آل الميرغني الذين ظلوا ولفترة طويلة يضعون مسافة بينهم وبين عامة الشعب ناهيك عن أتباعهم، والسيد محمد سر الختم - كما ذكرنا - هو ولد السيد محمد عثمان من فرع السيد جعفر، ووالده السيد محمد عثمان الذي ارتبط بأرتريا وكان أكثر مقامه فيها، وقد توفي قبل فترة قريبة، وتتبع منطقة البحر الأحمر إلى حدود

أرتريا لنفوذ السيد سر الختم الذي يعد نفوذه امتداداً طبيعياً لنفوذ السيدة مريم الميرغنية ابنة السيد محمد هاشم بن السيد محمد عثمان الختم.

إن ابتعاد السيد محمد سر الختم عن قيادة السيد محمد عثمان وقد أصبحت واقعاً بعد انضمامه إلى المؤتمر الوطني، تفقده – أي السيد محمد عثمان – منطقة الشرق بأسرها، فهو قد فقد في وقت سابق المنطقة التابعة لنفوذ السيد الحسن، وهي تشمل كسلا وما حولها إلى القضارف، كما أن السيد سر الختم لا يعتبر نفوذه يتوقف عند منطقة البحر الأحمر، ولقد كان للسيدة مريم الذي هو خليفتها (أتباع /خلفاء) في شمال السودان نحو أسرة أب شعر وأسرة ود الأفندي وآل أب شام وغيرها، وفي منطقة الرياطاب وعطبرة.

والرجل مؤمن بالتغيرات التي تحدث من حوله، ولديه اهتمام مقدر بإحياء الطريقة الختمية وتجديدها، وهو في سبيل ذلك يدفع بابنه السيد إبراهيم – وهو شاب مستنير تخرج في الجامعة الأمريكية – ليكون خليفة له.

أما الأتباع الذين انفلتوا عن قيادة السيد محمد عثمان للطريقة الختمية فهم كثيرون، من أبرزهم الأستاذ محمد عثمان خليفة المدير الأسبق للبنك الإسلامي السوداني، والذي كان عهده مثالاً للإصلاح في البنك الإسلامي، والشيخ الفاتح عثمان الزبير الذي أظهر إعلانه وتأييده لمسيرة الإنقاذ، والشيخ محمد الأمين، والفكي علي في بربر أحد قيادات الختمية الذي انضم للمؤتمر الوطني، وعبد الرحيم علي جاد الله من خلفاء الختمية في غرب شندي، والخليفة أبو شرة في منطقة حجر الطير والبسابير، هذه أمثلة لبعض الخلفاء الذين لهم تأثير في مناطقهم، هذا إلى جانب بعض الشخصيات التي خرجت بمفردها عن ولاء السيد محمد عثمان.

وينظر كثيرون إلى السيد محمد عثمان على أنه شخص يبحث عن مكاسب تخصه وحده دون أن يلتفت إلى كيانه الديني أو السياسي، وقد انقسم الذين كانوا من حوله إلى مجموعات، وأكبر مجموعة من حوله الآن هي مجموعة الشيخ عبد العزيز محمد الحسن إمام وخطيب مسجد السيد علي الكبير بالخرطوم بحري، وتضم مجموعة من الشباب من أمثال: عبد الوهاب الترابي من آل الترابي وهو شاب تعلم تعليماً دينياً وقد أكمل جانباً من دراسته العليا وهو سكرتير هيئة الختمية، ونزار محمد الحسن، وصلاح سر الختم، وسيف اليزل محمد أحمد، وجميعهم من

الشباب المحسوبين عليهم، كذلك عبد الله محمد محمود، ومجموعة الشيخ عبد العزيز مجموعة قوية نسبة لصلة الشيخ عبد العزيز بالسيد محمد عثمان. ثم هناك مجموعة الشيخ علي زين العابدين (رحمه الله) وهو أحد مشائخ الختمية التقليديين، وله عدد من المؤلفات في نصرة التصوف وتأييد آل البيت وقد رماه بعضهم بالتشيّع، لكنه من الواضح أنه كان ينفي هذا الأمر عن نفسه، وتضم مجموعته الشيخ محمد حامد محمد خير من أسرة دينية من شمال السودان، وهو مهندس كيميائي تخرج في جامعة الخرطوم وقد كتب مصنفاً في تأييد الشيعة، إلا أنه تراجع عنه في الفترة الأخيرة، وهذه المجموعة فيما يبدو ليست على اتفاق مع مجموعة الشيخ عبد العزيز، ومن أتباعها أيضاً الشيخ عبد الرؤوف أحمد موسى وهو من تلاميذ الشيخ علي زين العابدين المتقدمين، وهناك أيضاً مجموعة الشيخ تاج السر أحمد محمد إبراهيم وهو أحد خلفاء الختمية في شمال السودان، وقد بدأ يجد قبولاً كبيراً من السيد محمد عثمان في الفترة الأخيرة، هذا جانب من المجموعات النشطة لدى الختمية والتي تعمل بقبول أو عدم قبول من السيد محمد عثمان، ولكنها في ذات الوقت مجموعات مؤثرة وذات فاعلية. ومن الشخصيات المؤثرة في الطريقة الختمية كذلك السيد عبد المجيد عبد الرحيم، وهو تاجر معروف تعود أصوله إلى شمال السودان، حيث كان أجداده أصحاب خلاوي معروفة في منطقة القريبة، ويعتبر الآن رجل السيد محمد عثمان الأول بالسودان، حيث يتولى إدارة ومتابعة أمواله بالبلاد، كما إنه من الشخصيات التي عملت على التوفيق بين الإسلاميين والختمية.

وإذا عدنا إلى الانتقادات التي توجه إلى السيد محمد عثمان في إدارته لحركة الدين والسياسة في حزبه وطائفته يطالعنا في هذا الإطار ما قدمته السودانية بمصر سعيدة رمضان في كتابها، وفيه تعرّضت إلى شخصية السيد محمد عثمان، وقدّمت العديد من الانتقادات حولها، ويقلل السيد محمد سر الختم من أهمية هذا الكتاب، ويرى أنه كتب بدوافع شخصية صرفة. لكن الكثيرين يعتقدون أن السيد محمد عثمان يعيش بعيداً عما يجري في أرض الواقع، فهو يعيش في برج عاجي محجوب عن الأخبار وما يحدث فعلاً، ومغيَّب عما يدور حوله من حقائق.

خاتمة:

من المحزن حقاً أن الطريقة الختمية - هذه الحركة الدينية المؤثرة في حقبة مهمة من تاريخ البلاد -تشهد تراجعاً عظيماً على كافة المستويات، فهي للأسف توقّفت عن إنجاب أصحاب العقول من الذين يضعون المؤلفات ويكتبون ويصنّفون، وقد عرفت من قبل السيد هاشم والسيد جعفر والسيد الختم ومن أتباع الختمية أحمد بن محمد النصيح وغيرهم، كما أنها ظلت تقدم للمجتمع مصلحين ومجددين للحياة الدينية، ولكن كل ذلك كان مآله إلى لا شيء. وفي الوقت الذي أصبحت فيه العلوم الشرعية ليست نهباً لكل أحد وإنما تخصص يحصل فيه المرء على درجة أكاديمية وعلمية، نجد الطريقة الختمية تقدم أشخاصاً أقل ما يمكن أن يقال في حقهم أنهم غير مؤهلين لما يقومون به، لكن الختمية يعتبرونهم من أهل العلم ويرجعون إليهم في الفتوى الدينية.

إن رحم الطريقة عقم في هذه المرحلة من أن ينجب جيلاً من أهل الرأي والعقل والعلم، وكان من الطبيعي أن يحل محل هؤلاء جماعة ممن ليس لهم تأهيل وليسوا إلا أدعياء.

إن الطريقة الختمية الآن لا تملك معهداً علمياً واحداً تقدّم فيه أفكارها أو تعرض أدبياتها، وعلى الرغم من أني لست مع الرأي الذي قال به الصحفي النابه ضياء الدين بلال حول أن أسرة الميرغني سينتهي بها المطاف كأسرة علي دينار، فيبقى الاحترام لها ولدورها التاريخي ويذهب الولاء والنفوذ عنها، فأسرة الميرغني مازالت تملك المال والكثير من المال ولكنها تحتاج إلى جهد المخلصين من أبناء الختمية وإلى فكرهم وإلى وقتهم، والمهم جداً أن تتغير اتجاهات التفكير لدى قادة الختمية، وأن يتغير أسلوب الخلفاء وهو أسلوب عقيم لم يفرز غير مجموعات من العوام وطلاب النفوذ، ومن المتسولين على أبواب السياسة، وفي مثل هذا الوقت يحتاج المجتمع إلى نماذج مقنعة ومؤمنة ومخلصة بعيداً عن الأوهام والتهويمات الصوفية التي بلا جدوى.

كما إنه طال العهد بين الطريقة الختمية وبين التأليف والطباعة والنشر كما ذكرنا، وكل الذي نشر يحتاج إلى مراجعات ليتماشى مع العقل الديني الحاضر، فأين الختمية اليوم من المؤسسات الكبرى في التربية والتعليم والصحة والعلاج والعمل الاجتماعي؟ وأين الختمية من عامة الناس في الدعوة والعمل الإسلامي

وإصلاح الفكر والسلوك؟ وأين الختمية من الشباب تقدم لهم طرحاً بديلاً وفكراً ناضجاً وبعثاً إسلامياً مميزاً؟ وأين الختمية من نهضة إسلامية حقيقية يقودها المتعلمون من أبناء الختمية لا أنصاف العوام الذين يبحثون عن مشيخة زائفة؟.

إن جميع هذه التساؤلات تقودنا إلى لا شيء، فالختمية بعيدة عن كل ذلك، وهي بعيدة عن الحياة العامة بشكل كامل، ولها ولقادتها الدور الأكبر في ذلك، لكن هذا لا يعني أن الطريقة الختمية صفراً على اليسار، ولا يعني أنها زالت من قلوب وعقول الناس.